الرسوم الصخرية لشرق شمال قسنطينة

د. عبد العزيز بن لحرش*

المقدمة

لقد اشتهرت الجزائر، مثل الكثير من مناطق العالم، بالفن الصخري الذي تزخر وتزدهر به العديد من المحطات في جنوبها الصحراوي: مرتفعات التاسيلي، جبال الهقار اللتان لهما امتدادات واسعة خارج الجزائر إلى غاية نهر النيل مرورا بمنطقة فزان بالصحراء الليبية[1] التي احتوت على روائع فنية من مناظر ورسوم لحيوانات مختلفة الأنواع والأحجام، منها أنواع كثيرة لم يعد لها وجود في هذه البيئات الطبيعية، بسبب الهجرة أو الانقراض. وتزخر القارة الإفريقية بمئات المواقع للفن الصخري، باستثناء "الجبال العالية والمنخفضات وأحواض الأنهار والغابات بالمنطقة الاستوائية...[فهي]أقل ثراء في هذا الميدان"[2]. أما بالنسبة للمنطقة المغاربية نلاحظ ظاهرة أخرى هو عدم انتشاره على السواحل ويكون نادرا في المناطق القريبة منها، ويوجد في المناطق الداخلية ببلاد المغرب، وهذا على طول امتداد جبال الأطلس التلي الذي وجدت فيه هو الآخر عدة محطات لهذا الفن بدءا من الجبال المغربية إلى جبال شمال إقليم قسنطينة التي تكون موضوعا لهذه المداخلة.(خريطة ١).

ولقد تواجد هذا الفن على مستوى المنحدرات الصخرية التي تتكون منها حروف الأراضي العالية وتطل على مجاري المياه، والمروج الخضراء بالعشب، واختياره لها لأسباب سكنية ودفاعية ولإمكانية توفير الماء وقرب مواقع الصيد. وهذا ينطبق بشكل أكثر على المواقع التي وجدت ضمن سلسلة جبال الأطلس ومنها الرسوم الصخرية لمنطقة قسنطينة. مقابل هذا تواجد هذا الفن في الأراضي القاحلة حاليا والسباسب، لكن كل الدلائل الباليونتولوجيا تدل على أنها لم تكن كذلك وقت ما تم رسم هذه الصور والأشكال.

حظي مجال الرسوم الصخرية بشكل عام باهتمام متفاوت من قبل الباحثين الأوربيين منذ أن اكتشفت أولى المحطات بالجنوب الوهراني عام ١٨٤٧، بينما السكان المحليون ومؤرخوهم القدماء لم يهتموا به رغم معايشتهم لها يوميا. لماذا هذه اللامبالاة مقابل ذلك الاهتمام الذي أبداه الغربيون عامة والفرنسيون خاصة تجاه هذا النوع من النشاط البشري؟

---

* د. عبد العزيز بن لحرش، أستاذ محاضر بقسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر.

[1] - J- Leclant et P. Huard, La culture des chasseurs du Nil et du Sahara, Mémoires du Centre de Recherches Anthropologiques Préhistoriques et Ethnographiques, XXIX, , Tome 1,SNED, Alger, p.87.

[2] – ج. كي زربو، الفن الإفريقي في ما قبل التاريخ، في المنهجية وعصر ما قبل التاريخ، اليونسكو، ١٩٨٠، ص٦٦٥.

جهل سكان المنطقة بقيمة هذا التراث التاريخي، الذي تمتد جذوره إلى عصر ما قبل التاريخ، وأنا واحد منهم لم اسمع من أهلي عنها شيئا رغم أنني ابن المنطقة وإحدى المحطات لا تبعد عن مسقط رأسي ببضع كيلومترا. هل هذا له دافع ديني كونها تمثل صورا ورسوما مجسدة على الصخر، كأنها مخلفات لمعتقدات فترة قبل الإسلام ومن ثمة ليست لها قيمة معرفية؟ أم يعود إلى عامل نفسي، حيث

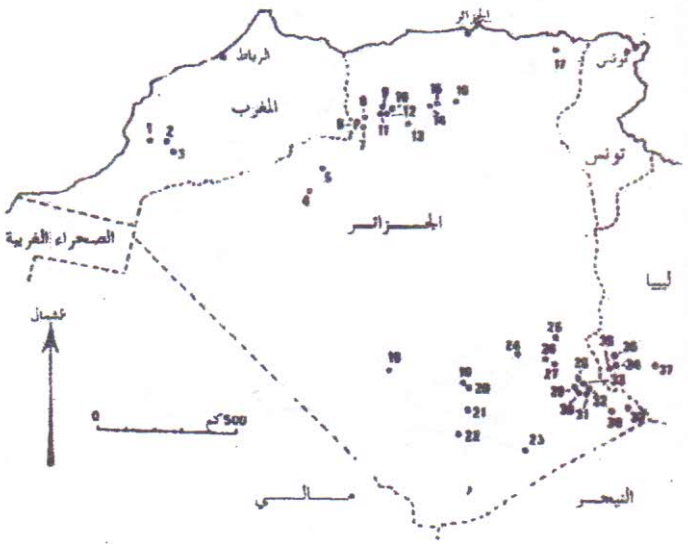

١-أوكيمدن ٢- ياغور ٣- تمنار ٤- مرحومة ٥- تاغيت ٦- جاتو ٧- واد العرعار ٨- تحيوت ٩- تازينة ١٠ - غارة الطالب ١١- رسفة الحمراء ١٢- غويرة بن سلول ١٣- بريزينة ١٤- الحمراء ١٥- عين صفيصيفة ١٦- الحسباية ١٧- **خنقة الحجر** [الوحيدة التي ذكرت في هذا القاموس من محطات مقاطعة قسنطينة] ١٨- واد ترغيت ١٩- تملاين ٢٠- مرتوتاق ٢١- مزارة ٢٢- أغنار ٢٣- أوفك ٢٤- تمجارت٢٥- جرات ٢٦- إيهرن ٢٧- تي-ن-تريت ٢٨- تسوقاي ٢٩- جبارن ٣٠- اوانحريت ٣١- صفار ٣٢- تي-ن-تزاريف ٣٣- إي-ن-إتنان ٣٤- تسهوينات ٣٥- تي-ن-لالان ٣٦- أميل ٣٧ ماثحندوس ٣٨ -تي-ن-احناقاتن ٣٩ - أرقين.

خريطة (١) تمثل انتشار الرسوم الصخرية في المنطقة المغاربية، وذكرت فيها أهم المواقع. مأخوذة بتصرف وترجمة عن Leroi-Gourhan, op. cit.

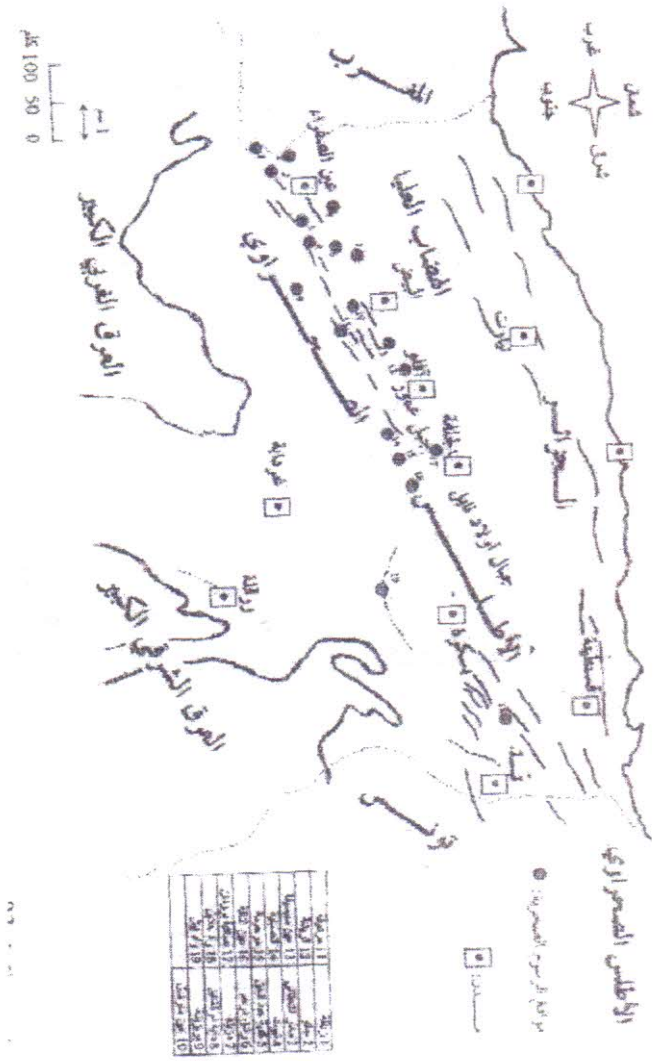

خريطة (٢) محطات الرسوم الصخرية في الأطلس التلي والجنوب الوهران

عن: J.Leclant et P. Huard, op.cit.

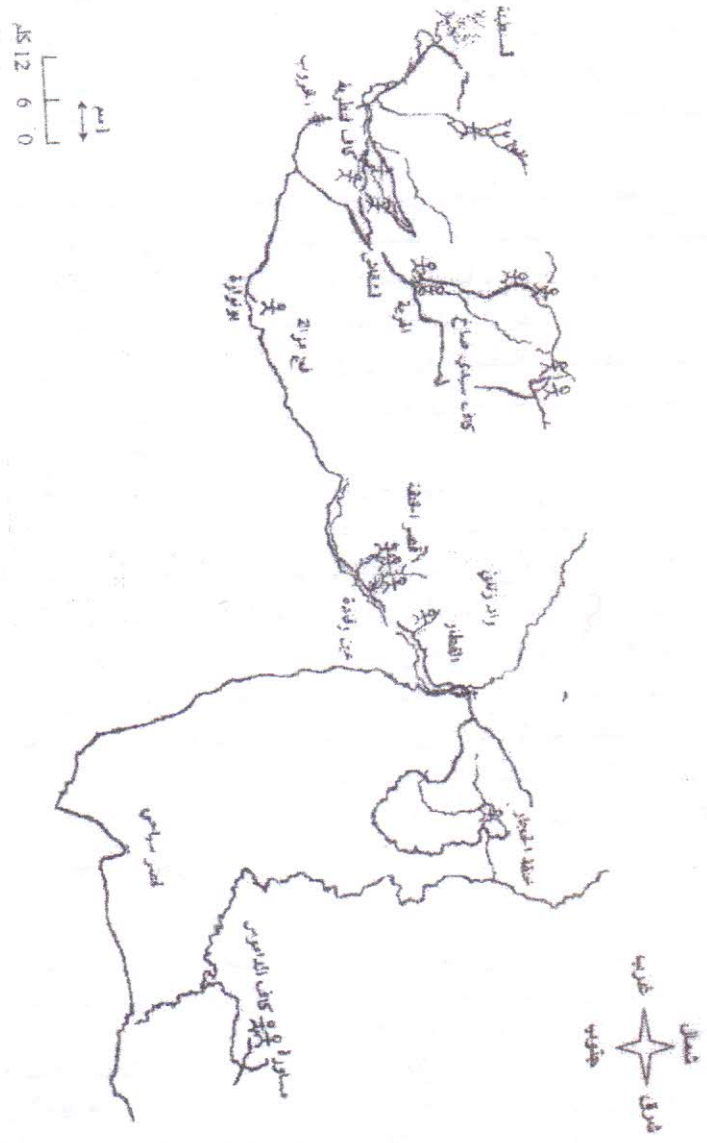

خريطة (٣) لمقاطعة شرق مدينة قسنطينة وزعت عليها محطات الرسوم الصخرية
عن Gillette et Louis Lefebvre, op.cit.

تعوّد السكان مشاهدتها منذ صباهم فصارت لا تثير فيهم أي، اهتمام عكس الشخص الغريب الوافد إلى المنطقة ولم يكن قد سبق له أن شاهد مثل هذه المناظر سوف يأخذه العجب أول الأمر[3] ثم الفضول في معرفة السبب في وجودها ومن أوجدها وكيف قام برسمها ومتى كان ذلك ولأي غرض، إلى غير ذلك من الأسئلة التي تتبادر إلى ذهن المكتشف.

عندما نقيّم كميا ما كتب عنها مقابل ما كتب عن محطات جبال الهقار والتاسيلي ومحطات الجنوبي الوهراني والأطلس التلي، نلاحظ قلة الاهتمام بدراستها من قبل الباحثين المختصين، باستثناء بعض الإشارات العابرة هنا وهناك[4]. هل هذا يعود إلى أن نوعية الرسوم. الموجودة بها ليست لها قيمة فنية أو تاريخية، لغياب مشاهد الصيد كما هو شأن الجنوب الوهراني؟ أم . ما تحتوي عليه المحطات المشهورة في التاسيلي والهقار تجعل أي باحث في غنى عنها؟ مع الإشارة أن هذه المحطات بدأ اكتشافها بمدة قبل اكتشاف المحطات الصحراوية بشكل عام.

تفسير هذا الاهتمام القليل، رغم قدم اكتشافها، يعود ربما إلى كونها جاءت في فترة كان النقاش حادا ما بين العلماء الأوربيين حول وجود فترة زمنية كان البشر فيها يعتمدون في الحصول على مطالبهم الأساسية بالاعتماد على الحجارة قبل أن يهتدوا ويروضوا المعدن، أي وجود فترة ما قبل التاريخ.[5] لذا كان عدم الاعتراف بأن العظام التي كانت تكتشف وبها نقوش ورسوم حيوانات هي من إنتاج بشر ما قبل التاريخ، وبعبارة أحد الباحثين "... لم نكن نعرف، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، أي فن أقدم من مصر القديم، أو فنون طقوس العبادة"[6]. حتى أن مكتشف كهف ألتاميرا في أسبانيا المشهور عام ١٨٦٣ بروائعه الفنية اتهم بالتزوير ومات من غير أن يعرف أهمية ما اكتشف، لأنه كان "صعبا التصديق بأن هناك فنا قد تواجد في أوربا في الزمن السحيق يستحق الابتهاج العلمي".

---

[3] – مثلما حدث لمكتشف رسوم منطقة «تحيوت» و«مغارة التحتاني» بالجنوب الوهراني عام ١٨٤٧ لما شاهد أناسا مسلحين بالسهام، ورسوم الأسود والفيلة والبقر فاندهش لوجود مثل هذه الرسوم. Ginette Aumassip, Trésors de l'Atlas,E.N.AL, Alger, 1986, p.9-10.

[4] – هناك دراسة عامة رصدت لنا عدد هذه المحطات وتاريخ اكتشافها مع عرض صور لها، لكنها لم تتعمق أكثر في العديد من القضايا التي ما تزال دون توضيح: مدلول والغرض من هذه الرسوم، الزمن الذي تعود إليه: Gillette et Louis Lefebvre, Corpus des gravures et des peintures rupestres de la région de Constantine, Mémoire du CRAPE, VII, Alger, 1967.

[5] – يمكن القول أن بداية الاعتراف بوجود هذه الفترة التاريخية من تاريخ البشرية كانت عام ١٨٥٩، ومنذ ذلك التاريخ وجد علم ما قبل التاريخ كعلم قائم بذاته ومستقل عن بعض العلوم الأخرى، له منهجيته ومجال دراسته وتقنيات البحث عن مصادر معلوماته.

[6] – يان إيلينيك، الفن عند الإنسان البدائي، ترجمة جمال الدين الخضّور، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩٤،ص١٣.

إلى جانب هذا بدأت هذه الاكتشافات مع توسع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، لأن جلها اكتشفت من قبل بعثات عسكرية استكشافية، وليست في ظروف سلمية أو من قبل مختصين.

وعليه بدا من الضرورية في مرحلة أولى التعريف بها و عرض ما تحتوي عليه لبعض المحطات من مشاهد نقشت ورسمت عليها العديد من الحيوانات السائدة آنذاك.ومحاولة التعرف على الدوافع التي كانت وراء القيام بهذا النشاط الذهني في شكل جدول إحصائي لتكون النظرة شاملة، ثم تحديد المراحل التي ترجع إليها وهذا ضمن الإطار العام الذي وضعت فيه مراحل فن الرسوم الصخرية في شمال إفريقيا، لمعرفة مدى تطابق هذا التقسيم المحدود إقليميا مع الإطار العام.

إن الدخول في عرض المسار التاريخي الخاص باكتشاف هذه المواقع البالغ عددها ثمانية عشر محطة،(خريطة٣) من قبل الفرنسيين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى غاية الستينات من القرن العشرين سوف يكون مملا، وعليه ارتأيت أن أضبط هذه الاكتشافات في جدول يبين تاريخ الاكتشاف والمكتشف وعدد المشاهد المرسومة به المقدر عددها بـ ٢٠٨ مشاهد وأشكال مختلفة، والتقنية التي أنجزت به هذه الرسوم كما هو مبين هنا.

التقنية المتبعة	اسم الموقع	المكتشف	التاريخ	عدد المشاهد
النقش البارز	خنقة الحجر *	شارل فنيورال	١٨٦٧	٦١
	كاف سيدي صالح	لابورد	١٩٠٨	٢١
	كاف تسنقة	سولينياك+ بوسكو	١٩١٥	١٩
بواسطة النقر	كاف الغراب	سولينياك+ بوسكو	١٩١٥	١
	كاف مريبح	شوبي	١٩٦٥	٢
	كاف طرفانة	سولينياك+ بوسكو	١٩١٥	٢٥
	مخبأ الحنش	شوبي	١٩٦٥	١
	شعبة الحلسة	سولينياك	١٩٢٨	١٦
	قصر الخنقة	فلامند	١٩٠١	١
منقوشة بالقلم	شعبة القطار	شوبي	١٩٦٥	١
	لمبلاش	شوبي	١٩٦٥	١
	كاف الصورة	برنال	١٨٩٢	١٢
	كاف الداموس	برنال	١٨٩٢	١
مصبوغة	قشقاش	سولينياك+بوسكو	١٩١١	١
	كاف فنطرية	سولينياك+بوسكو	١٩١١	٢٢
	كاف عين النحاس	سولينياك+بوسكو	١٩١١	١٨
	عين رقادة	سولينياك+بوسكو	١٩١١	٣
مخططة	جبل مزالة	سولينياك	١٩٢٨	٢

جدول(١) يقدم نظرة عامة عن محطات مقاطعة قسنطينة ومن حيث التعرف عليها وعدد المشاهد التي وجدت بها والكيفية التي أنجزت بها:

عن Lefebvre (G Et L).op.cit

مصطلحات فن الرسوم الصخرية.

لقد تعددت المصطلحات التي عبرت عن هذا النشط البشري لدى المهتمين به سواء كانوا علماء آثار أو أنتربولوجيين، ومؤرخين للفن، حيث عرف تحت مسميات عديدة. فهو «الفن الصخري L'art rupestre » ومعناه النقش والرسم على جدران الكهوف لقد تم اكتشاف هذا النوع من الفن في أوربا الذي يعود إلى فترة العصر الحجري القديم الأعلى، كما وجد بإفريقيا وإلى يومنا مثلما نجد لدى بعض القبائل الصحراوية مثل قبائل «دوقن Dogon » بمالي يخططون على الصخور أقنعة مختلفة وهي تعبير عن خرافات سائدة بين أفراد هذه القبيلة[٧] التي تكون بمثابة امتداد للفن الصخري القديم.

وهناك من يطلق عليه تسمية « التصوير الجداري Fresques»[٨] وسمي بهذا المصطلح لكونه وجد على واجهات الكهوف والمخابئ والكتل الجبلية[٩] أو هو عبارة عن «صور صخرية Les images rupestres» أما البعض الآخر فضل الإبقاء على التسمية التي يطلقها بعض سكان مناطق الصحراء على هذا النوع من النشاط تحت اسم «الحجرة المكتوبة»[١٠].

كل هذه التسميات تعبر على شيء واحد هو تلك الأشكال والصور الكثيرة لحيوانات وبشر وغيرها التي خلفها لنا الإنسان القديم على جوانب الصخور والمخابئ التي كان يلجأ إليها للاحتماء والاختباء فيها. يندرج هذا النشاط ضمن الفن التشكيلي الذي عرفه الإنسان منذ أقدم عصوره، والذي ضم بشكل عام: النحت، النقش، الرسم، العمارة...[١١] وله أهمية بالغة الفائدة في دراسة بعض الجوانب من حياة لإنسان القديم، لأنه "عبارة عن بيبليوغرافيا حقيقية نستطيع من خلالها استخراج التقنيات وبعض الأنماط من حياة القدامى، وتطور الاستيطان... لكن مع الأسف يبقى هذا المصدر من الوثائق صعب الاستعمال"[١٢].

---

7 – Dictionnaire des civilisations Africaines, Fernand Nathan, Paris, 1968, p.44

8 – Lhote (H), A la découverte des fresques du Tassili, Arthaud, Paris1958.

9– Hawks (J) Woolley (L), La préhistoire et les débuts de la civilisation, In Histoire de développement culturel et scientifique de l'humanité, Volume1, éditeur R.Laffont, Paris 1963, p.164.

10 – Flamand(G.B.M,) وهو عنوان لكتاب أحد الباحثين المختصين الذين اهتموا بدراسة هذا الفن: Hadjrat Mektouba, ou les pierres écrites. Premiers manifestations artistiques dans le Nord-Africain, Bull. de la Soc. d'Anthrop, t.XX, 1901, pp.181-182.

11 – من أجل أخذ نظرة شاملة حول الفن وتاريخه وتطور العودة إلى الكتاب القيم لصاحبه: طوماس منرو، التطور في الفنون، ٣أجزاء، ترجمة على أبو درة وأخرون، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧١-١٩٧٢.

12– Camps (G), Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara, Ed. Doin, Paris, 1974, p.261.

حقا هذا ما يلمسه كل دارس لهذا النشاط الحياتي لإنسان ما قبل التاريخ، وهذه الصعوبة تكمن على الخصوص في الإشكاليات التالية: ما هو الدافع الذي يكمن وراء القيام برسم تلك الصور والأشكال؟ وكيف أنجزها وما هي الأدوات التي استعملها؟ ومتى أنجزت؟

إذا ما لخصنا بشيء من الاختزال -بحسب المقام هنا-تعدد التفسيرات التي حاولت أن تبرز وتقف على الدوافع إلى إنجاز هذا الشكل من النشاط الذهني لإنسان ما قبل التاريخ، نلاحظ أنها لا تخرج عن دافع من الدوافع التالية: دافع ديني- سحري؛ آخر نفعي- واقعي، ثالث جمالي أو الفن من أجل الفن؛ رابع ترفيهي أو وسيلة للهو واللعب. لكن كل هذه التفسيرات تدور حول إشكاليتين: الأولى هل للفن طابع رمزي ؟ أو له طابع روائي فقط؟

فيما يلي نظرة مبسطة عن بعض الدوافع التي كانت ابتكار فن الرسوم الصخرية بشكل عام ومدى تطابق أو توفر هذه الدوافع في فن الرسوم الصخرية مقاطعة قسنطينة.

١- هذا الفن **دافعه كان دينيا**، أو سحريا على اعتبار تداخل الدين بالسحر في العصور القديمة، ويستند أصحاب هذا الرأي على ما تم العثور عليه في بعض الكهوف الأوربية مثل كهف «الإخوة الثلاثة» بفرنسا حيث توجد صورة لرجال يرتدون أقنعة وفسروا على أنهم سحرة، أو رسوم الدببة المقطوعة الرأس المشهورة التي وجدت في كهف «مونتسبان Montespan »[١٣](فرنسا) طبعا الأمثلة توجد بكثرة والمقام لا يسمح بذكرها، لهذا اعتماد الدين والسحر كدافعين لنشأة الفن الصخري غير مستبعدة، لكن هل كل هذا الموروث الفني مصدره هذين الدافعين، بالتأكيد لا، ومن ناحية أخرى هل الدافع عند أصحاب الفن الجداري في الكهوف الأوربية هو نفسه عند الإفريقيين، بالتأكيد لا، فلكل بيئة ضغوطاتها المختلفة على ذهنية المقيمين عليها ويستجيبون لتحدياتها المتنوعة.

٢- **الدافع النفعي والواقعي.**

يرى أصحاب هذا الرأي أن الإنسان كان يصور الطبيعة المحيطة به بما فيها من الحيوانات التي تشكل جزءا هاما بالنسبة لحياته، ورغبة التصوير لها ينم عن حاجة داخلية تساعده على السيطرة عليها والانتفاع بها، على اعتبار أن حياة الإنسان بشكل عام وعبر مختلف الأزمنة هي السعي الدءوب من أجل البقاء وتلبية حاجاته البيولوجية الأولية من مأكل ومشرب وتكاثر، مثلما كان يجهد نفسه في صناعة الأدوات للصيد

13- André Leroi-Gourhan, dictionnaire de la préhistoire, P.U.F,Paris, 1988.

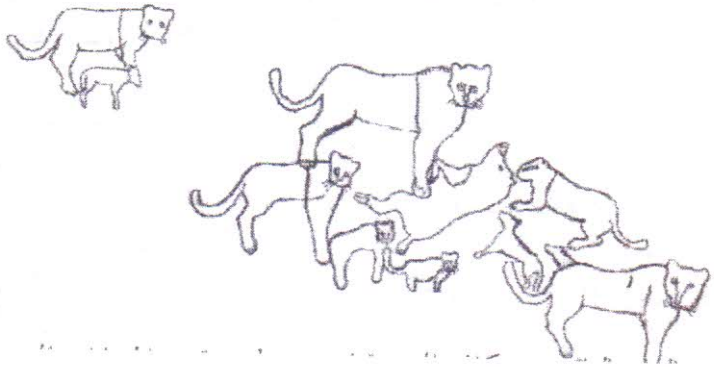

شكل (١) يبين الرسم الواقعي من كاف المصورة فيه رسم لمجموعة من الحيوانات المفترسة يحيط بخنزير تم اصطياده إلى جانب ذئاب تطمع أن تشارك في الوليمة.

والدفاع عن النفس كان يصور هذه الحيوانات، أي صيدها وحبسها على الصخر ثم قنصها بتلك الأدوات.

يتضمن هذا الدافع تداخلا وتقاطعا مع الدافع السحري، لأن رسم الحيوان قبل صيده يدخل نوعا من الشعور بالقوة لدى الصياد والإقدام على صيد طريدته دون إحساس بالخوف، مع هذا جعل صور الحيوانات في هيئة واقعية كما يراها في الطبيعة من حيث تفاصيل الجسم والحركة، وبمظهر جانبي، هي النواحي التي يعتمدها أصحاب هذا الرأي[١٤] إذ أن هذه الواقعية بينت قدرة الفنان على رسم ما يحيط به بدقة متناهية لدرجة أنه قيل أنه كان بدراية الرياضيات حيث كان دقيقا في ضبط الطول والعرض. وأنه يعكس لنا النضج الباكر الذي تمتع به الإنسان القديم في دقة الملاحظة وتمثيل ما يحيط به من تنوع البيئة الحيوانية والطبيعية،[١٥] و"تعبير تام عن مدى نضج وذكاء إنسان ما قبل التاريخ"[١٦] فالبيئة وظروف المعيشة هي التي صقلت هذه القدرة العقلية في تصوير واقعه كما كان يراه ويعيشه.

---

14 – Luquet (G-H) L'Art et la religion des hommes fossiles, Librairie de l'académie de médecine, Paris, 1962, p.790

15 – لا يجب أن يغيب عن بالنا إن إنجاز مثل هذه المناظر قام بها أفراد لهم وهبة الرسم، وأن هذه الموهبة تصقل بالتدريب والتعلم، وهذا يفسر لماذا نعثر على بعض الصور بشكل رديء وبدائي، وأخرى أصحابها يتمتعون بقدرة عالية والتحكم في الأدوات التي يستعملونها، والتقينات التي يتبعونها في رسم الحيوان بكل تفاصيل الجسم أطراف وجذع ورأس وقرون منحرك أو قابع، يأكل أو يشرب أو يصطاد، أو يحمي أبناءه، إلى غيرها من المشاهد التي ترك المشاهد منبهرا ومشدوها نحولها.

16 – Lionel Balout, L'intelligence des hommes préhistoriques, In Libyca, T.1, 1953, p242.

٣- الإحساس الجمالي(الفن من أجل الفن).

هل كان إنسان ما قبل التاريخ يتذوق المناظر التي كان يقوم بها مثلما يبتهج فنان اليوم عندما يخلد منظرا جميلا على لوحته الزيتية؟ الإجابة صعبة إن لم تكن مستحيلة لكل من يحاول أن يتعرض له. مع هذا نجد البعض من المهتمين بدراسة هذا الفن يرجون الدافع إليه هو البحث عن الجمال وفقا لرؤية الفن من أجل الفن.أغلب الباحثين ينفون فكرة رغبة لدى الإنسان لتشكيل صور وأشكال لذاتها، وهذا صحيح لكن لما نلمس مدى التفاني والدقة والاهتمام بالنقش أو الرسم يصعب إيعاد رغبة وشعور بالجمال لدى الفنان الذي أبدع في إخراج صور وأشكال جميلة بألوانها الزاهية أو الداكنة تدل على شعور راقي وإحساس لولا هما لما كانت هناك بقايا للفن الصخري.

٤- الفن وسيلة للتعبير-للعب والتسلية.

اتخذ الإنسان القديم عدة طرق ليعبر بها عما يفكر فيه وعن معاناته مع الطبيعة وكيف واجه تحدياتها باللجوء إلى اختراع أدوات من الطبيعة ذاتها، مثل الحجرة، الخشب، عظام الحيوانات... وأن هذا الأدوات تعكس المستوى العقلي له بحسب الفترات التاريخية، وما يعطي أهمية لدور هذا العقل هو التوصل إلى ابتكار وسيلة الفن سواء كان نقشا على العظام أو رسما على الجدران الطبيعية وواجهات الكهوف التي اتخذها محل إقامة وأخذ يرسم المشاهد الرائعة التي استخرجها من محيطه لتبقى كشاهد يتحدى عوامل الطبيعة المتقلبة حتى وصل إلينا ومنه تم التعرف على أنواع الحيوانات التي كان يعتمد عليها في حياته اليومية وصار هذا الفن يعكس الحياة اليومية للصياد والراعي، خلال فترة ما قبل التاريخ والفترة التاريخية ومنها تعرف على عدد من المظاهر الثقافية لديهما: السحر، المعتقد، الصيد، الرعي، التزاوج...[١٧]

عموما الفن الصخري ليس له دافعا واحدا، بل هو متعدد الدوافع وإن كانت تصب-كما سبق التأكيد عليه- في دافعين عامين هما الدافع الرمزي وما يتفرع عنه والدافع الروائي والقصصي، أما أين يلتقيان ويتقاطعان فهذه إشكالية أخرى تتطلب تعمقا أكثر من هذا.

١٧- Leclant (J) Huard (P), op. cit, p.423-441.

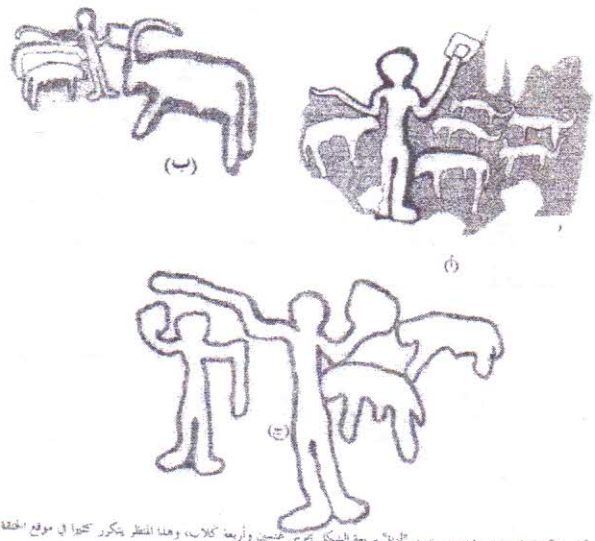

كل (2) ثلاثة مشاهد لشخص يحمل "أداة" مربعة الشكل يحرس غنمين وأربعة كلاب، وهذا المنظر يتكرر كثيرا في موقع الخنقة

شكل (٢) ثلاثة مشاهد لشخص يحمل "أداة" مربعة الشكل يحرس غنمين وأربعة كلاب، وهذا المنظر يتكرر كثيرا في موقع الخنقة (مشهد-أ-) في الثانية نفس الشخص يقوم بدور حامي الغنم من هجوم ثور(مشهد-ب-) ويمكن إعطاء نفس التفسير للمشهد الثالث (مشهد -ج-)بنفس الكيفية لكن أمام شخص آخر.

بدراسة مختلف المحطات التي تقع في مقاطعة قسنطينة نلمس فيها هذه الدوافع المختلفة التي تنسب لفن الرسوم الصخرية، بشكل عام.فهناك المشاهد التي استخلص منه الدارسون بأنها جاءت لتعكس نظرة "دينية" وسحرية" وهذا من خلال عدد كبير من الرسوم التي تظهر شخصا عرف بسم «الإله الراعي» الذي يصور دائما بصحبة حيوانات عاشبة مثل الغنم والبقر والكلاب (مشاهد: أ،ب،ج) من شكل(١)

مراحله.

قسم الباحثون المراحل التي مر بها فن الرسوم الصخرية بمناطق شمال إفريقيا على أربعة مراحل، كل مرحلة يميزها حيوان معين، وهي:

١- مرحلة الحيرم Bubalus.
٢- مرحلة البقارة.
٣- مرحلة الخيل.
٤- مرحلة الجمال.

المرحلتان الأوليان، حسب الباحث «لوث»[18] تنتميان إلى فترة ما قبل التاريخ، وفقا للتتابع الكرونولوجي المطبق على شمال إفريقيا مقارنة مع الشرق الأوسط القديم الذي

[18] Lhote,Henri, Les gravures rupestres de l'oued Djerat (Tassili-n-Ajjer), Mémoire du CRAPE,XXV, Alger 1975,p37.

دخل المرحلة التاريخية بمدة طويلة قبل بلاد المغرب. أما الفترتان الثالثة والرابعة تعودان إلى الفترة التاريخية.

المرحلة الأولى تعتبر أقدم مراحل فن الرسوم الصخرية، وسميت باسم ثور ضخم وحشي، له قرنان كبيران يشكلان شبه دائرة على صورة هلال تقريبا، وقد اختفى من صحراء شمال إفريقيا عموما خلال العصر الحجري الحديث[19]،ولا يعرف بالضبط متى كان هذا الاختفاء. لهذا لا نجد صورا له في المراحل اللاحقة[20]، ومن ثم كان اختفاء حيوان ما دليلا على نهاية فترة وقيام فترة أخرى. كما سميت هذه المرحلة بمرحلة الصيادين لكثرة مناظر الصيد الذي كان السائد[21]، وربما كان أهم المصادر الغذائية للإنسان في ذلك الوقت، لأنه قام برسم عدد هائل من الحيوانات المتوحشة الموجودة آنذاك مثل: الأسد، الفيل، الزرافة، وحيد القرن، الخنزير البري، الظبي، الغزال، الحمار الوحشي، الفهد، إلى جانب حيوان الحيرم. ولقد عثر على هذا النوع مرسوم في ثلاث مواقع بمقاطعة قسنطينة: في «كاف سيدي صالح»(صورة ١)، و«خنقة الحجر» (صورة ٢) إلى جانب موقع «شعبة الحلسة» (صورة ٣) وتفتقر المحطات الأخرى من رسم هذا الحيوان.

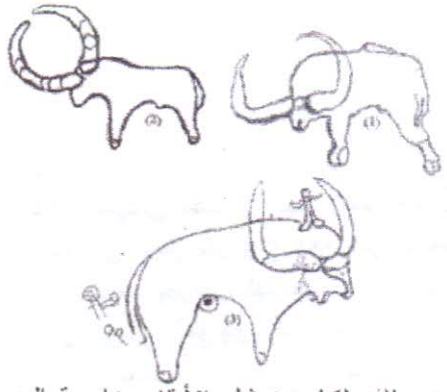

شكل (٣) رسوم حيوان الحيرم الموجودة في مقاطعة قسنطينة؛ صورة (١) حيوان الحيرم Bubalus antiqus من موقع خنقة الحجر طوله ١٥٦,٧ سم وعرضه ١١,٦ سم؛ صورة (٢) حيوان الحيرم Bubalus antiqus من موقع كاف سيدي صالح طوله ٢١٢ سم وعرضه ١٦٥ سم؛ صورة (٣) حيوان الحيرم Bubalus antiqus من موقع شعبة الحلسة طوله ١٦٤ سم وعرضه ١٢٤ سم

أما المرحلة الثانية هي مرحلة البقارة وسميت بذلك لكثرة تمثيل الأبقار خاصة المدجنة فيما بعد، وتم رسمها في وضعيات مختلفة فرادى أو في قطيع، ترعى، تنام، تركض إلى غير من ذلك . كما تسمى أيضا مرحلة الرعاة[22]، وهي المرحلة الغنية بإنتاجها

---

19 – اكتشف عام ١٨٧٤ بمنطقة الجلفة على هيكل كامل له، وأعتبر نوع من الجاموس القديم الذي اختفى من كامل شمال إفريقيا، أما بقاياه المتحجرة توجد في ترسبات عصر البلايستوسين الحديث.
Lhote (H), Les gravures rupestres de l'Atlas saharien, p.28-27.

20 Aumassip (G), op. cit, p.42.

21 – راجع الكتاب القيم من جزأين حول ثقافة الصيادين النيل و الصحراء لصاحبيه: Leclant (J.) et Huard (P.), La culture des chasseurs du Nil et du Sahara, op. cit.

22 – حتى لا نناقض أنفسنا لا بد من الإشارة إن تضمين هذه الفترة في مرحلة ما قبل التاريخ ليس تناقضا باعتبار أن تدجين الحيوانات والسهر على حياتها كان سابقا عن دخول المنطقة في المرحلة

الفني المتنوع الذي انتشر من وادي النيل إلى الأطلسي. وتم تقسيم هذه المرحلة حسب تطور عملية الرعي من قديم وسيط وحديث[٢٣]، وهذا التقسيم تعكسه تنوع حياة الرعاة ومظاهرها المختلفة: الاجتماعية، الاقتصادية، الجنسية، العقائدية... فكل أنواع الحيوانات التي رسمت خلال هذه المرحلة تقريبا هي نفسها التي شهدت في رسوم المرحلة السابقة مع كثرة رسوم الحيوانات الآكلة العشب مما يدل على وفرته خلال هذه الفترة من تاريخ شمال إفريقيا. أما الحيوان الذي صار غائبا من الرسوم هو حيوان الحيرم. لكنها مقارنة مع حيوان الأروى الذي رسم بكثرة،إلى جانب صور الغنم فصور البقر شحيحة في منطقة قسنطينة على خلاف ما هو سائد في جل مواقع الرسوم الصخرية في بلاد المغرب. وجدت رسومها في عشر محطات من بين ثمانية عشر محطة، كما هو مبين في توزيع رسوم الحيوانات في مختلف المحطات، الجدول (٢)

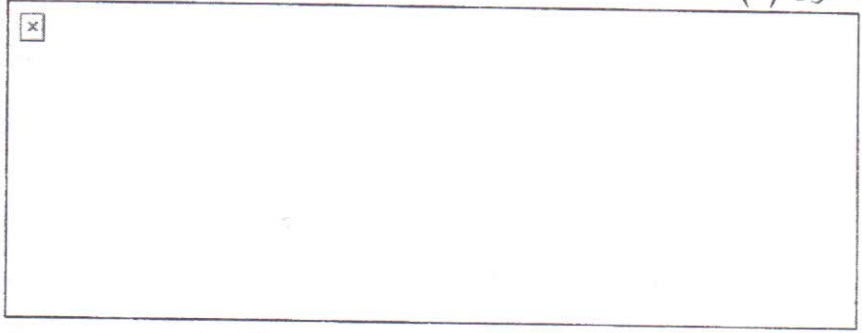

شكل (٤) مشهدان لحيوان البقر على اليمين وجد محطة كاف مريبح عبارة عن قطيع قطيع من البقر تتراوح أبعاد الرسم ما بيم ٧٩ سم طولا و٣٨,٥ عرضا. على اليسار ثور ضخم بقرنين كبيرين، رسم بطول ١٨١,٥سم طولا و١٢٧ عرضا وهو يشبه الثور الحالي الموجود في سفانا إفريقيا بين النيجر والتشاد.

مع ذلك تكون مقاطعة قسنطينة قد مرت بمرحلة البقارة مثل بقية المناطق الأخرى من شمال إفريقيا التي تكون قد امتدت من الألف الرابعة إلى الثانية قبل الميلاد، وهي الفترة التي تعاصر نشأة وتطور الحضارة البشرية في كل من بلاد النيل وبلاد وادي النهرين، أي إن وصول حرفة الرعي جاءت متأخرة عن هاتين المنطقتين بمدة زمنية طويلة، كما يفسر هذا عملية انتشار لثقافة الرعي من مركزها الأصيل إلى حواشيه القريبة ثم البعيدة.

التاريخية، ممثل ما حدث في منطقة الشرق القديم التي مرت بالاستقرار الدائم إلى تدجين الحيوانات ممارسة الزراعة ثم اكتشاف الكتابة والدخول في المرحلة التاريخية.

23 – Hugot

(H.J) Le Sahara avant le désert, p.248

المرحلة الثالثة سميت بمرحلة الحصان لأن الموضوع الممثل بكثرة ولأول مرة هو الحصان أو الخيالة، ويرجع بعض الباحثين بداية هذه المرحلة بحوالي الألف الأول قبل الميلاد[٢٤]، وكما هو سائد من اعتقاد أن الحصان جاء مع غزو الهكسوس لمصر ما بين ١٧٠٠-١٦٠٠ ق.م، لهذا يظهر أن بداية الفترة بنحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ سنة بعد دخوله مصر يعتبر رقما معقولا. لقد رسم هذا الحيوان في مشاهد جر العربات في عدة مناطق من الصحراء، أما في مقاطعة قسنطينة وجدت له ثلاثة رسوم فقط في موقع «خنقة الحجر» (رسم١) وموقع «تسانقة» (رسم ٢) «وموقع الحلسة» (رسم ٣) بمفرديهما لا توجد عربة أو أي شيء آخر.

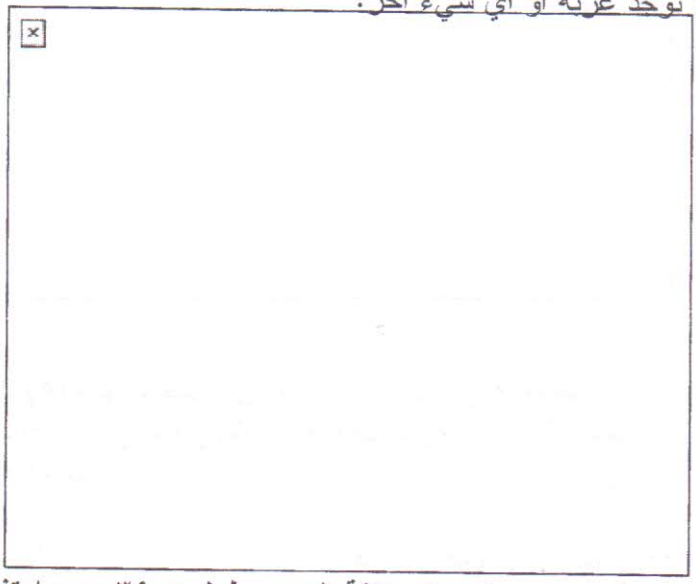

شكل (٤) على اليمين رسم لحصان خنقة الحجر بطول ٣٩,٥ سم وارتفاع ١٩,٢ سم على اليسار حصان موقع تسانقة طوله ٢٣,٤ سم وارتفاعه ١٣,٣ سم في لأسفل حصان موقع الحلسة بطول ٣٨سم وارتفاع ٢٣,٥ سم

أما المرحلة الرابعة التي سميت بمرحلة الجمل بعد أن صار يحتل المكانة الأولى في حياة سكان البلاد المغاربية حيث انتشرت رسومه في العديد من المواقع. فكثرة الرسوم له هي التي دفعت بالمهتمين بوضع تتابع مرحلي لهذا الفن و يكون خاتما لمراحله التاريخية. أما من حيث تواجده في مقاطعة قسنطينة فهو نادر جدا باستثناء رسم وحيد له عثر عليه في موقع «مخبأ المزارة» بجبل مزالة عبارة عن صورة مرسومة بالفحم. ويبدو من خلال الفحص الذي أجراه الباحث «لوفبرLefebvre»

24 _ Lhote (H), Le Hoggar, p.98

أنه حديث، فهو لا يعود لفترة ما قبل التاريخ ولا إلى فترة فجر التاريخ[٢٥] معنى هذا أن منطقة قسنطينة لم تشهد مرحلة الجمل، في ظني هذا أمر طبيعي لأن الجمل معروف عليه أنه حيوان صحراء وأن منطقة قسنطينة هي منطقة جبال وغابات وسهول وأودية.

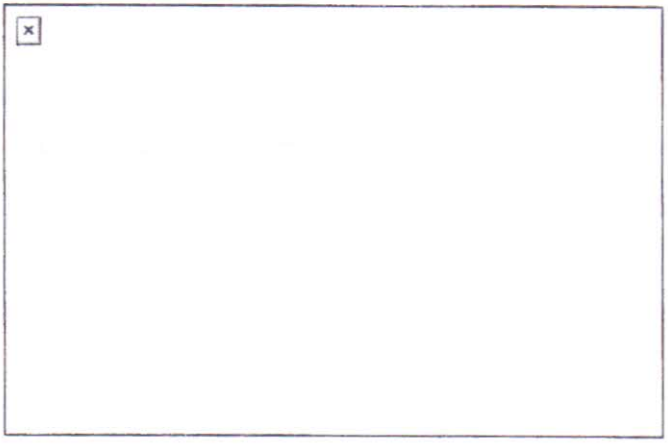

شكل(٥) صورة جمل من موقع «مخبأ المزارة» بمحطة «جبل مزالة» وهو الشكل الوحيد الذي رسم في مقاطعة قسنطينة، وقد رسم بقلم فحمي بطول ١٨ سم وارتفاع ١٢,٥سم.

هذه النظرة السريعة في مراحل الفن من خلال تسميتها باسم حيوان معين الذي كانت له الأهمية في حياة الإنسان المغاربي خلال فترة ما قبل التاريخ فقام برسمها سواء بدافع سحري أو ديني وغيريهما، نجدها غير متكافئة مع مقاطعة قسنطينة، (جدول ٢) بتطبيق هذه الرؤية سوف نسقط من هذه المراحل المرحلتين الثالثة والرابعة لقلة المشاهد المرسومة لكل من الحصان والجمل، وإعادة واقتراح تقسيم جديد يناسب هذه الرؤية، على اعتبار هناك الكثير من الحيوانات التي رسمت بعدد كبير أكثر منهما مثل: الغنم، الماعز، الغزال، الأروى، الكلب، الفيل، النعامة، فهذه الحيوانات قد تكون مناسبة لوضع تقسيم جديد، وهذا طبعا يتطلب دراسة جدية ومتأنية في المستقبل لها.

25 – Lefebvre (G et L), op. cit, p.278

جدول (٢) إحصائي لجل محطات مقاطعة قسنطينة تحتوي على مختلف المشاهد التي رسمت فيها الأنواع المختلفة من الحيوانات أو غيرها: المصدر المعتمد:

Lefebvre (G et L), op.cit.

المحطة / رسوم	كاف قنفرية	عين نحاس	قشقاش	صالح لمباغش	ك.سيدي	حجر الغراب	تسانقة	كاف مربيح	طرفانة	جبل مزالة	خنقة الحجر	الخنقة الخمسية	قصر الخنقة	شعبة القطار	كاف	عين رقادة	كاف الدامرس	المجموع
بشر	٣ ٦	٥		١	٢٥	١	١٢		٨		٥٠	٢٧	١					١٦ ٦
بقريات	١	٢		١	٤		٤	٦	٢		١١	٢			١			٣٤
الحيرم					١						١	١						٣
الفيل	٦								١		٢							٩
الأروى	١ ٢	٥	١				٢		٨		١						١٣	٤٢
الكبش		١																١
ماعز		٣																٣
غزال					١				٢		١							٤
غنم	٢				٧		٨		٥		٥٤				١			٧٧
كلب					١					١	٣٦							٣٨
ذئب															٣			٣
خيل							١				١	١						٣
جمل										١								١
ثعبان		١										٢						٢
فراشة		١																١
نعامة						٨	١٧		١٦		٢				٦			٤٩
قرون		٢																٢
أسد														١	٧			٨
فهد							٥		١									٦
لبؤة											٢							٢
خنزير															١			١
يد		١																١
تنقيط		١														١		١
خطوط	١		٤						١									٦
أ.هندسية	١																	١
ح.مبهمة	١	١	١				٢	٢	٩			٢					١	١٩
ر.مبهمة	١			٣			٤		١				١			٣	١	١٥
خ.حنشية					١							٢						٣

أما من حيث الدوافع التي كانت وراء رسم هذه المشاهد فهي متوفرة كلها من الديني إلى السحري إلى الواقعي إلى دافع التسلية واللعب، مع التنبيه إلى أن نظرة الباحثين قد تتباين حول رسم معين بين الديني والسحري والواقعي والمسلي أو التعليمي. (جدول ٣)

بودي أن أشير في ختام هذه المداخلة إلى قضيتين لم أتعرض لهما: أصل هذا الفن، هل هو محلي، أو وافد إلى المنطقة، الثانية قضية الزمن الذي ترجع إليه بدقة غير متوفرة بالنسبة لنا لحد الآن من غير الدخول في جدل حول ما قاله الباحثون بشأنها، وأن ما قيل كان حول مواقع أخرى قد توفرت على بعض الأدلة أو العلامات والإشارات التي تسمح باقتراح تاريخ لها، وهي شحيحة بشكل واضح في محطات مقاطعة قسنطينة.

المحطة / الدافع	كاف قنطرية	عين نحاس	قشقاش	لمبلاش	ك.سيدي صالح	حجر الغراب	تسانقة	كاف مريج	طرفانة	جبل مزالة	خنقة الحجر	الحلسة شوبعة	قصر الخنقة	شوبعة	كاف	عين رقادة	كافلدامو
ديني	٣		١ ؟		٧		٤				٢ ٩	١			١ ؟	١	١ ؟
الواقعي	١ ٠	٤		١	٤	١	٩	١	٩		١ ٤	٨	١	١	٢		
للتسلية	٩	٨	١		٥		١	١	١ ٣	٢	٥	٥				١	
مبهمة	١ ١	١			٥		٤		١		٨	٢					

جدول (٣) يرصد مختلف الدوافع التي فسرت الرسوم الصخرية في مقاطعة قسنطينة، مع ملاحظة أن الدافع الديني يتضمن: مشاهد لرقصات دينية أو ممارسات سحرية، أو تكون طقوس عبادة الخصوبة. أما الواقعي يتضمن الشعور بالجمال في رسم المشاهد، في حين تكون مشاهد التسلية متضمنة مشاهد للتدريب على الرسم، أما المشاهد المبهمة هي تلك التي يصعب إيجاد لها مغزى ومعنى من وراء رسمها.

المراجع:

- إيلينيك. (يان)، الفن عند الإنسان البدائي، ترجمة جمال الدين الخضّور، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩٤.
-زربو. (ج. كي)، الفن الإفريقي في ما قبل التاريخ، في المنهجية وعصر ما قبل التاريخ، اليونسكو، ١٩٨٠.
- منرو. (طوماس)، التطور في الفنون، ٣أجزاء، ترجمة على أبو درة وآخرون، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧١-١٩٧٢.

Aumassip. Ginette, Trésors de l'Atlas,E.N.AL, Alger, 1986.-

-Balout,(Lionel) L'intelligence des hommes préhistoriques, In Libyca, T.1, 1953.

-Camps (G), Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara, Ed. Doin, Paris,1974. -- Dictionnaire des civilisations Africaines, Fernand Nathan, Paris, 1968.

-Flamand(G.B.M,) Hadjrat Mektouba, ou les pierres écrites. Premiers manifestations artistiques dans le Nord-Africain, Bull. de la Soc. d'Anthrop, t.XX, 1901.

-Hawks (J) Woolley (L), La préhistoire et les débuts de la civilisation, In Histoire de développement culturel et scientifique de l'humanité, Volume1, éditeur R.Laffont, Paris 1963.

-Leclant(J.) et Huard. (p) La culture des chasseurs du Nil et du Sahara, Mémoires du Centre de Recherches Anthropologiques Préhistoriques et Ethnographiques, XXIX, , Tome 1,SNED, Alger.

-Lefebvre,(Gillette et Louis), Corpus des gravures et des peintures rupestres de la région de Constantine, Mémoire du CRAPE, VII, Alger, 1967.

Leroi-Gourhan,(André) dictionnaire de la préhistoire, P.U.F,Paris, 1988.-

-Lhote.(Henri), Les gravures rupestres de l'oued Djerat (Tassili-n-Ajjer), Mémoire du CRAPE,XXV, Alger 1975.

Lhote (H), A la découverte des fresques du Tassili, Arthaud, Paris1958. -

-Luquet (G-H) L'Art et la religion des hommes fossiles, Librairie de l'académie de médecine, Paris, 1962.